(4)

## الاختزال

من إشكاليات الخطاب الرسمي أنه يكثر من الأقوال المرسلة بلا تعليل ويختزل الفكرة في كبسولة معرفية دون الخوض في تفاصيل وخصائص قبول تلك الفكرة أو رفضها على نحو يُزيل الغموض ويمنع التداخل، فتحويل المعرفة إلى كبسولات جاهزة يعيدنا إلى عصر التلخيصات التي كانت إيذانا بأفول عصر التقدم والازدهار في تاريخ المسلمين، وهذا ما أنكره الشيخ عبد القاهر الجرجاني في نهج سابقيه من اختزالهم الحق والصواب في كلمة بلا تفصيل، و إصدارهم الحكم بلا تعليل - علما بأنهم كانوا أقل اختزالا من الخطاب الإسلامي المعاصر - فعنده أي حكم يحمله قول لابد أن يكون مشفوعا بدليل، وأن الكلام يكون دقيقا على قدره تفصيله. [1]

ومن الصور البارزة للاختزال في الخطاب الإسلامي اختزال الأشياء ذات الطبيعة الثنائية من الخير والشر والقبح والجمال في جانب واحد، ومن شواهد ذلك طريقة تناول الخطاب الوعظي للحياة الدينا التي تركز على إبراز جانب الشر فيها وترسيخ معاني تحقيرها وضرورة عدم الركون إليها، مهملة معاني الاستخلاف الإنساني إصلاحا وتعميرا، فلا عجب أن يأتي من يتطرف فيقرر التدمير؛ لأن الخطاب الدعوي الرسمي أضعف في نفسه جانب الاستخلاف التعميري للدنيا، وقوّى جانب الكراهية لها، فكان أقرب إلى الهدم منه إلى البناء.

(1) دلائل الإعجاز ج1 ص48.

وكراهية الدنيا واحتقارها لا يختص بخطاب إسلامي دون آخر بل فكرة عامة في الثقافة الإسلامية لغياب الدقة والتحديد في تأويلنا لآيات القرآن الكريم، فدوما ننسي القيد وهو أن الدنيا المبغوضة هي «دنيا الإفساد»، «دنيا الأطماع»، ولا أميل إلى اتهام الخطاب الديني في الماضي و إعفاء الحاضر أو اتهام خطاب المتصوفة دون غيرهم، كما فعل الشيخ الغزالي في قوله: «منذ بضع مئات من السنين سقط المجتمع الإسلامي كله فريسة لفكر بعض المتصوفة، هوّنوا لديه العمل للدنيا باسم الإقبال على الأخرة. فكان عقبى هذا التوجيه الضال دمارًا أصاب المسلمين في كيانهم العلميّ والعسكريّ والسياسيّ. إن الإقبال على الآخرة حقّ، ومن ذا الذي يجرؤ على تهوين الآخرة أو يغض من الاستعداد لها؟ غير أن الطريق إلى ذلك ليس بالانصراف عن الدنيا - كما يفهم الكسالى وأهل البلادة- بل بامتلاك الدنيا وتسخيرها لله. إن أي تاجر مسلم على عهد رسول الله كان كأي تاجر وثني أو نصراني أو يهودي نشاطا وذكاءً وضربا في الأرض و بصرًا بالسوق وطلبا للربح. كل ما هنالك من فرق أن غير المسلم قد يكرس مكاسبه لنفسه وعاجلته، أما المسلم فهو يدَّخر لأخرته - قليلا أو كثيرا - من سعيه.»[1] الخطاب الدعوي إن كان مطالبا بالحث على عدم الطمع والإفساد في الدنيا والإعلاء من الجانب الروحي في التعامل معها، فهو مطالب أيضًا بإفساح مساحات أكبر للتحفيز على التعمير والإصلاح والبناء ونشر مبادئ الإسلام عدلا ومساواة وحرية وأمنا، فلا يُهمش من أهمية الحياة الدنيا في الإسلام ثم نسأل أنفسنا لماذا تخلّف المسلمون في ركب الحياة!

(1) محمد الغزالي. مع الله. ص66.

ومن مظاهر اختزال الأحكام في الخطاب الإسلامي الرسمي غياب الحديث عن المنطقة الشاسعة في التشريع الإسلامي، وهي منطقة المباح والجائز، وتبنى خطاب دعوي يختزل الإسلام في واجب أو حرام، مما يجعل المتلقي دائما في حالة سؤال عن المسكوت عنه أفي دائرة الحرام أم في دائرة الواجب؛ ليضفي عليه قداسة تخرجه عن دائرة الإباحة والجواز والاختيار إلى دائرة الإلزام.

وأخيرا الخطاب الديني الرسمي يضع رأسه في الرمال، فلا يتبنى مصارحات فكرية واضحة حول الكثير من القضايا الشائكة في العقل والوجدان المسلم لمواجهة التطرف على غرارا ما فعل النبي ﷺ فإن لم يعرف المجتمع الأول حضورا للتطرف والتشدد في شكل جماعة أو فرقة، إلا أنه ظهر في فكر وسلوك البعض غلوا سرعان ما كان يردّ النبي ﷺ دعاته من ضيق الإيجاب والتحريم إلى رحابة الجواز والإباحة، ففي حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: جاء ثلاث رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ فلما أُخبِروا كأنهم تقالُّوها (أي :عدُّوها قليلة(، فقالوا: أين نحن من النبي ﷺ؟ قد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبدًا (أي: دائما دون انقطاع)، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر (أي: أواصل الصيام يومًا بعد يوم)، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدًا. فجاء رسول الله ﷺ فقال أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني.» [1] وقد جاءت معالجة النبي ﷺ

(1) جاء في الصحيحين: البخاري (5063) ومسلم (1401).

متسمـة بالصراحة والمواجهة، مؤكدة على مناطق المباح والجائز الشاسعة في الإسلام، وأن سلطة الإيجاب والتحريم الشرعيين حيث يكون الأمر بالفعل ومنـع الفعل ليست سلطـة بشرية يصطنعها البعض تشـددا؛ ليتقربوا بها إلى الله، بل سلطة ربانية حيّزها الله في مناطق محدودة لا يجوز توسيعها.